

لسانيات التراث العربي

- قراءة في مدونة عبد الرحمن الحاج صالح -

د. بوسغادي حبيب*

ملخص الورقة البحثية:

نسعى من خلال هذه الورقة البحثية إمطة اللثام وعن المنهج الذي اتبعه شيخنا اللساني عبد الرحمن الحاج صالح، وعنابرز القضايا التي تناولها في مدونته اللغوية، من خلال تثويره لهذه التركة الفكرية والروحية - التراث العربي - فنتج عن ذلك جملة من المصادر الهامة في هذا الشأن، على غرار (بحوث ودراسات في علوم اللسان) و (البنى النحوية العربية) و (منطق العرب في علوم اللسان) و (النظرية الخليلية الحديثة) و (السماع اللغوي عند العرب ومفهوم الفصاحة).

لقد وقف اللساني الحاج صالح الجزائري عند تحليل ظواهر اللغة العربية بشكل خاص، وقد لمسنا أنّ هذا الخطاب كان تراثيا بامتياز، فضلا عن جمعه بين التربوي والعلمي واللساني، إذ راح يقيم موازنة بين ما قاله أسلافنا اللغويين من خلال إنتاجهم لبحوث قامت على سوق متينة وتوصلوا بها إلى أفكار ومناهج، وما يقوله المحدثون من خلال وضعهم لنظريات ومذاهب لسانية كالنحو التحويلي والتوليدي ونظرية الخطاب ونحو النص وغيرها.

إنّها قراءة في المدونة التي وضعها الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح؛ معرجين على القضايا التي تطرق إليها؛ هذه القضايا والمسائل يمكن بحق أن تكون نظرية قائمة بذاتها، كيف لا وهو صاحب بدعة الذخيرة اللغوية؛ فنعم البدعة الحسنة هذه.

نص المقال:

للجزائريين دور بارز في البحث اللساني المعاصر، ولعل أبرز قاماته العلمية الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح، إذ يتفق كثير من الباحثين على أنه أب اللسانيات مغاريا وعربيا، وأحد الأعلام البارزين في النهوض بالدرس اللساني العربي الحديث؛ فقد دعا إلى إعادة قراءة التراث بمنظار علمي بعيدا عن الاستنطاق والتحليل الهزيل، وعن التعسف في التأويل بلا حجة أو دليل. وقد اقترن اسمه بما سمي بالنظرية الخليلية الحديثة. إذ يعتبر المؤسس الحقيقي لها بعد جهود مضمّنية من البحث اللغوي، الذي تناول ما أنتجه الغرب خلال عقود من الزمن وما قدم من جهود بحثية تتصل بالتفكير اللغوي عند العرب في ضوء اللسانيات الحديثة؛ فمن هو هذا العالم اللساني؟

ولد الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح بمدينة وهران في 8 جويلية 1927م، درس في المدارس الحكومية، وفي الوقت نفسه كان يتلقى دروسًا بالعربية مساء في إحدى المدارس الحرة التي أنشأتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والتحق وهو ابن خمس عشرة سنة بحزب الشعب الجزائري؛ وبعد أن أتمّ تعليمه المدرسي، بدأ في دارسة الطب وفي سنة 1954 توجه إلى مصر ليكمل دراسة التخصص في جراحة الأعصاب، ولما كان يتردد على جامع الأزهر وكان يحضر إلى بعض دروس اللغة العربية، وإذا به يجد نفسه يعيد اكتشاف ذاته من جديد ويتعرف على تراث اللغة العربية بوعي جديد؛ فحول اهتمامه من حقل الطب إلى الدراسات اللغوية المعاصرة وهناك اكتشف أهمية التراث العلمي اللغوي العربي من خلال ما اطلع عليه من

*- بوسغادي حبيب، كلية الأدب والفنون، جامعة وهران 1.

كتاب سيويه خاصة، واتضح له الفرق الكبير الذي لاحظته بين وجهات النظر الخاصة بالنحاة العرب الأقدمين وما يقوله المتأخرون منهم، وكان هذا دافعاً مهمّاً في حياته العلمية؛ ولم يستطع أن يكمل دراسته في مصر فالتحق بجامعة بوردو BORDEAUX بفرنسا بعد أن ساهم في ثورة أول نوفمبر لمدة سنوات، ثم نزل بالمملكة المغربية والتحق بثانوية "مولاي يوسف" في الرباط كأستاذ اللغة العربية، واغتنم الفرصة لمواصلة دراسة الرياضيات في كلية العلوم.

وبعد حصوله على التبريز في اللغة العربية تكرم عليه الإخوة في المغرب فأوكلوا إليه تدريس اللسانيات في كلية الآداب بالرباط باللغة العربية في 1960م قضى حياته أستاذاً وباحثاً في جامعة الجزائر بعد الاستقلال وعيّن في سنة 1964م رئيساً لقسم اللغة العربية وقسم اللسانيات، ثم انتخب عميداً لكلية الآداب، وبقي على رأس هذه الكلية إلى غاية 1968م؛ وتفرغ بعد ذلك للدراسة والبحث في علوم اللسان حيث استطاع بمساعدة الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي (وزير التربية آنذاك) أن ينشئ معهداً كبيراً للعلوم اللسانية والصوتية وجهزه بأحدث الأجهزة وأسس أيضاً مجلة اللسانيات المشهورة؛ وفي هذا المعهد واصل الأستاذ بحوثه بفضل المختبرات المتطورة الموجودة فيه وأخرج تلك النظرية التي لقبته في الخارج "بالنظرية الخليلية الحديثة" (وهي مطروحة في الرسالة التي نال بها دكتوراه الدولة في اللسانيات من جامعة السوربون في سنة 1979م)؛ وفي عام 1980م أنشأ ماجستير علوم اللسان وهو نسيج وحده لأنه متعدد التخصصات، وقد نوقشت أكثر من 70 رسالة منذ أن أنشئ.

وقد تولدت لديه فكرة أطروحة الدكتوراه التي أنجزها بعد عناء عشر سنوات من البحث والتنقيب حول أصالة النحو العربي، واهتدى آنذاك إلى مشروع الذخيرة اللغوية العربية عن طريق البرمجة الحاسوبية، وكان أول عالم عربي يدعو إلى ذلك المشروع، كما كان أول الداعين إلى تبني المنهج البنيوي وإنشاء محرك بحث عربي "قوقل google عربي" وفي سنة 1988م عُيّن الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح عضواً مراسلاً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، ثم انتخب عضواً عاملاً به سنة 2003م. للدكتور الحاج صالح واحد وسبعون بحثاً ودراسة نشرت في مختلف المجالات العلمية المتخصصة (بالعربية والفرنسية والإنجليزية)، اعترف له القاضي قبل الداني..(1)

أولا/ التعريف بالمصطلحات:

حاول الدكتور الحاج صالح سبر أغوار تراثنا اللغوي، محاولاً في ذلك استخلاص الوشائج بينه وبين اللسانيات المعاصرة؛ ومن بين الآثار التي صدر بها مشهده البحثي نظريته الخليلية التي إذا ذكرت ذُكِرَ معها النحو العربي الحامل بكل كَلِّهِ، محاولاً إبراز مواطن الاتفاق والاختلاف بين ما جادت به قريحة أسلافنا القدامى وبين اللسانيات الحديثة " وقد تمخضت عن النظرية الخليلية مجموعة من البحوث والمقالات عالج فيها جوانب عديدة من التراث اللغوي العربي، إذ شمل كتابه (بحوث ودراسات في اللسانيات العربية بجزئين) موضوعات تخص النظرية الخليلية الحديثة، منها: تكنولوجيا اللغة والتراث اللغوي العربي الأصيل، والجملة في كتاب سيويه، وأول صياغة للتراكيب العربية نظرية العمل العربية، والتحليل العلمي للنصوص، ومستقبل البحوث العلمية، في اللغة العربية، وضرورة استثمار التراث الخليلي، وتعال نحي علم الخليل، ودور النظرية الخليلية الحديثة في النهوض بالبحوث الحاسوبية الخاصة باللغة العربية، فضلا عن بحوث أخرى تخص النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية من خلال النظرية الخليلية" (2)

وقد ارتأينا قبل الوقوف على أعمال الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح فنقرأها من حيث الموضوعات التي تناولها وناقشها، أن نشير بشكل مختصر إلى المصطلحات التي فرضها علينا عنوان هذا المقال وهي: (المنهج، اللسان، التراث).

1/ تعريف المنهج:

أ/ المنهج لغة:

إذا تصفحنا المعاجم والقواميس اللغوية للبحث عن مدلول المنهج فإننا نجد شبكة من الدلالات اللغوية التي تحيل على الخطة والطريقة والهدف والسير الواضح والصراط المستقيم. ويعني هذا أن المنهج عبارة عن خطة واضحة المدخلات والمخرجات، ويعني هذا أن المنهج ينطلق من مجموعة من الفرضيات والأهداف والغايات ويمر عبر سيرورة من الخطوات العملية والإجرائية قصد الوصول إلى نتائج ملموسة ومحددة بدقة مضبوطة. (3) فقد ورد في معجم الوسيط أن أصل كلمة المنهج هونهج، ويقال نهج فلان الأمر نهجا، أي أبانه وأوضحه، ونهج الطريق إذا سلكه، والنهج بسكون الهاء: سلك الطريق الواضح. (4)

أما صاحب اللسان فأشار إلى أن المادة: أنهج الطريق: وضع واستبان، وصار نهجا واضحا بينا، والمنهج بفتح الميم وكسرهما هو النهج والمنهاج أي الطريق الواضح والمستقيم. (5): وقال الزمخشري في مادة (نهج) موردا أثرا عن ابن عباس: "إن رسول الله (ص) لم يمت حتى ترككم على طريقة ناهجة، والناهجة: البينة، يقال نهج الأمر وأنهج إذا تبين ووضح" (6) وتقابل كلمة المنهج في اللغة الإنجليزية كلمة Curriculum وهي كلمة مشتقة من جذر لاتيني Currere ومعناها مضمار سباق الخيل، أي: "هي المسار الذي يسلكه الإنسان لتحقيق هدف ما" (7)

ب/ المنهج في الاصطلاح:

تعددت تعريفات المناهج من الناحية الاصطلاحية وتنوعت بحسب ما وضعه الباحثون والأخصائون في هذا الصدد؛ يقول سيد البحراوي معقبا على مفهوم المنهج: "مجموعة متناسقة من الخطوات الإجرائية المناسبة لدراسة الموضوع، تعتمد على أسس نظرية ملائمة وغير متناقضة معها، أي أن التناسب والتناسق لا بد أن يتم بين جوانب ثلاثة: الأصول النظرية للمنهج، وأدواته الإجرائية والموضوع المدروس" (8)؛ ويقول يوسف وغيليسي بتعبير مغاير: "هو جملة الأساليب والآليات الإجرائية الصادرة عن رؤية نظرية شاملة إلى الإبداع الأدبي تنبثق عن أساس فلسفي أو فكري، يستخدمه الناقد في تحليل النص وتفسيره بكيفية شاملة" (9)

أما كلمة التعداد التي أشرنا إليها سابقا فإن حجر الزاوية في هذه الاختلافات تلخصه كلمة واحدة هي Scientific العلمية والجانب الهام في عملية المناهج هو "استعمال الأساليب العملية التي يعتمد عليها الموضوع أي المنهج العلمي scientific method والذي يمثل في ملاحظة الظواهر ثم إقامة الفرض النظري الذي يفحص بعد ذلك منهجيا عن طريق التجريب وتحقيق الفروض، كما يهتم بوضع أصول نظرية علمية ومصطلح علمي ثابت وواضح" (10)

2/ مفهوم اللسان من المنظور العربي:

لقد عني علماء العربية القدماء باللغة كونها وسيلة التخاطب في ما بينهم فبدلوا جهودا كبيرة في دراستها والكشف عن قوانينها واصولها وسمات ألفاظها، وطرائق الإتيان بها وصولا إلى معرفة معانيها ودلالاتها" (11)

ودرج علماء العربية على إطلاق تسمية اللسان أو اللسانية على علوم ودراسات معينة، فالفارابي مثلا أطلق تسمية (علم اللسان) على فصل من كتابه (إحصاء العلوم) وهو عنده ضربان: أحدهما حفظ الألفاظ الدالة عند أمة ما وعلى ما يدل عليه شيء منها. والثاني قوانين تلك الألفاظ؛ وعلم اللسان عند كل أمة ينقسم سبعة أجزاء عظمى: علم الألفاظ المفردة، علم الألفاظ المركبة، علم قوانين الألفاظ عندما تكون مفردة، وقوانين الألفاظ عندما تتركب، وقوانين تصحيح الكتابة، وقوانين تصحيح القراءة وقوانين تصحيح الأشعار. (12)

ووردت عنده أيضا في كتابه الثاني (الحروف) بمعنى اللغة، إذ يرى أنّ واضح لسان الأمة هو من يدبر أمرهم ويضع بالإحداث ما يحتاجون إليه من التصويّيات لما لم يتفق عليه بين أبنائها بالاصطلاح والتواطؤ (13)

أما ابن خلدون فقد أطلق على معجمه تسمية (لسان العرب)، أما ابن خلدون فقد خص من كتابه المقدمة فصلا ووسمه بـ (علوم اللسان العربي) أدرج ضمنه: "علم النحو، علم اللغة، علم البيان وعلم الأدب". (14)

3/ التراث:

لفظ التراث في العربية من مادة (و.ر.ث) وأغلب المعاجم القديمة تجعله مرادفا للإرث والورث والميراث وهي مصادر تدل عندما تطلق اسما على ما يرثه الإنسان من والديه من مال أو حسب؛ ففي لسان العرب نجد أنّ التراث من: "الوَرث والوَرث والإرث والوراث والتراث واحد الميراث، والتراث ما يخلفه الرجل لورثته، وفي حديث رسول الله (ص) إليك مآبي ولك تراثي، أي ما يخلفه الرجل لورثته" (15)

وقد وردت هذه الكلمة – أي التراث- في القرآن الكريم مرة واحدة عند قوله تعالى: (وتأكلون التراث أكلا لما) [سورة الفجر، الآية 17]، وبالتالي فإنّ معناها هاهنا "هو المال الذي تركه الهالك وراءه" (16)

أما اصطلاحا فقد تعددت تعريفات الباحثين لهذه الكلمة، فنجد علي إسماعيل قائلا: "هو المخزون الثقافي والمتوارث من قبل الأجداد والمشمتم على القيم الدينية والتاريخية والحضارية والشعبية، بما فيها من عادات وتقاليد سواء أكانت هذه القيم مدونة في التراث أم ماثورة بين سطورها، أو متوارثة أو مكتسبة بمرور الزمن وبعبارة أخرى: إن التراث هو روح الماضي والتراث أثر وتأثر بحضارات غيره من الأمم والشعوب قديما وحديثا، وزاد في اختصابه تطور صلات التأثير والترجمة والتبادل المباشر بين تلك الحضارات وبين الحضارة العربية" (18)

وإذا ما ولينا الوجهة شطر الدكتور عبد الرحمن الحاد صالح وجدناه يعرفه قائلا "هو ما تركه لنا العلماء العرب القدامى من أعمال جلييلة انطلقت كما هو معروف من دراسة القرآن للحفاظ على لغته وذلك بطريقة علمية وهو الاستقراء للنص القرآني واختراع نظام من الإعجام والنقط لتصحيح القراءة" (19)

إذن التراث هو تلك التركة سواء أكانت فكرية أم روحية أم عرفية يتقاسمها العرب فيما بينهم لتتوارث خلفا عن سلف.

ثانيا/ مضامين المدونة اللغوية لعبد الرحمن الحاج صالح :

نسعى في هذا العنصر إلى إبراز الجهود المبذولة التي تركها الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح من خلال أعمال جلييلة، تناولت التراث العربي بالدراسة والتمحيص تمخض عن ذلك جملة من النظريات يمكن أن تضاهي في طروحاتها النظريات الغربية

معروف أنّ شيخنا الحاج صالح اعتنى بالنظرية اللسانية أيما اعتناء، يتجلى ذلك من خلال توجهه كليا إلى الاعتراف من التراث ودراسته، يقول أحد الدارسين موردا قول الحاج صالح: " طالما نادينا إخواننا اللغويين إلى الرجوع للتراث العلمي اللغوي الأصيل ومازلنا إلى يومنا هذا نحاول أن نقنع الناس على ضرورة النظر فيما تركه أولئك العلماء الفطاحل الذين عاشوا في الصدر الأول من الإسلام حتى القرن الرابع الهجري ونفهم ما قالوه واثبتوه من الحقائق العلمية التي قلما توصل إلى مثلها كل من جاء من قبلهم من علماء الهند واليونان ومن بعدهم كعلماء اللسانيات الحديثة في الغرب، وقد حاولنا أن نبين منذ أكثر من خمس وعشرين سنة القيمة العلمية العظيمة التي تتصف بها هذه الأقوال والنظريات التي ظهرت على أيدي أولئك العلماء العرب.

إنّ موضوعيته الحقّة جعلته لا يقبل إلاّ بسطة العلم إذا انقطع له بجديّة قلّ مثيلها، كان يخضع كلّ الأقوال للنقد والتمحيص مهما كان مصدرها عند القدماء أو المحدثين عند العرب أو عند الغربيين وأنّ يحرض على احترام العالم مهما كان انتماءه" (20)؛ وتضيف الباحثة قائلة: "لا أحد منا يمكنه أن ينكر قيمة الأعمال التي قدمها للسانيات العامة والعربية على وجه الخصوص رافعا بكل موضوعية عن أصالة البحث اللغوي العربي في القرون الأربعة الأولى للهجرة" (21) هذا العنصر مخصص للحديث عن أبرز الأعمال التي طرحها الحاج صالح، تتم عن مرجعية تراثية محضة، تشيع بها من خلال مطالعته الكثيرة لكتب النحو العربي وخاصة ما جادت به قرائح الخليل وسيبويه. وأول كتاب نلقي عليه الضوء هو كتاب (البنى النحوية العربية).

أ/ البنى النحوية العربية:

الغرض من هذه الدراسة هو الوصول بقدر الإمكان إلى تحديد المفاهيم العلمية التي اعتمد عليها النحاة العرب المتقدمون في تحليلهم للبنى النحوية ومختلف الطرق التحليلية التي ساروا عليها لإثبات البنى النحوية لفظا ومعنى. هذا الكتاب قسمه صاحبه إلى عشرة أبواب كل باب وُسِّمَ بعنوان، ويقدم هذه الأبواب مقدمة نهضت على خمسة عناصر هي: علم النحو كدراسة علمية للبنى اللغوية، ويليّه تحول ما جاء في كتاب سيبويه عبر الزمان، ثم البناء والتركيب، فنظام اللغة وأوصافه في رؤية النحاة الأولين، وأخيرا ما قصده الخليل وسيبويه بالضبط مما قلا وشرّحا. أما الباب الأول فموسوم: الوضع اللغوي كتركيب ماهيته وتوظيفه وتحليله بمقياس الانفصال؛ وهو يقوم على فصلين الأول منه موسوم: اللغة وضمان اصطلاحها وتركيبها، والثاني معنون: الوحدات الدالة الصغرى في اللغة العربية (مفهوما الكلمة والحرف)؛ أما الباب الثاني فوسمه ب مفهوم الموضع والمجالات الخاصة به وهو مفهوم اختص به النحاة العرب القدماء؛ وهو ينهض على فصل واح موسوم: الموضع: ماهيته ومكانته من النحو الخليلي؛ أما الباب الثالث فجعله للاسم وحدّه الصوري الإجمالي (اللفظة الاسمية)، وهو يقوم على ثلاثة فصول هي: الأول منه وسمه (قسمة التركيب اللغوي في المستوى المركزي للغة وهو منطلق التحليل عند الخليل وسيبويه)، أما الثاني منه فتحدث فيه عن المقاييس الصورية لاكتشاف الوحدات، وأخيرا الفصل الثالث موسوم: مفهوما الوصل والبناء ومفهوم شدة الاتصال وصنّفه؛ الباب الرابع خصصه للحديث عن اللفظة الفعلية: الفعل وحدوده الثلاثة، وجعله في فصلين هما: الفوارق بين حد الاسم وحد الفعل، والثاني خصصه لحدود الفعل الثلاثة؛ أما خامسهم فتحدث فيه عن بناء الكلام وقسمة التركيب في المستوى ما فوق اللفظة، وجعله في فصلين الأول منه تحدث عن المكون الأساسي لمستوى بناء الكلام وهو نظام العامل، والثاني لأبنية الكلام الأساسية؛ أما الباب السادس فموسوم بمكونات بنية الكلام مع الزوائد في مستوى التراكيب؛ وهو ينهض على أربعة فصول، وكل فصل تناول مسألة تركيبية لبنية الكلام، فالفصل الأول جعله للزوائد على نواة الجملة وعلى اللفظة الاسمية، أما الثاني فتحدث فيه عن أنواع الوحدات التركيبية الزائدة على نواة الكلام واللفظة الاسمية، أما الفصل الثالث فخصصه للزوائد على اللفظة العاملة عمل فعلها، والفصل الأخير وسمه ببنية الكلام (الجملة) وبنية اللفظة: ما تتفقان وما تختلفان فيه؛ أما الباب السابع فجعله لظواهر الإطالة وقوانينها، والتي بناها على ثلاثة فصول الفصل الأول لظاهرة وقوع التراكيب في موضع الاسم، والفصل الثاني تحدث فيه عن ظاهرة الإطالة بالتثنية أو التكرير، أما الفصل الأخير فتحدث فيه عن ظاهرة الإطالة المكثفة والإطالة الموسعة وما يفترق فيه علم العربية والنحو التوليدي؛ والباب الثامن خصصه للحديث عن مستوى الصدارة أو ما فوق العامل كأعلى مستوى في اللغة، وجعله في فصلين: الأول منه تحدث عن مستوى الصدارة ومفهومها عند النحاة العرب، والثاني منه للمعاني الخاصة بمستوى الصدارة؛ أما الباب ما قبل الأخير فوسمه بالعلة والتعليل في النحو العربي وهو أيضا ينهض على فصلين، الأول منه تحدث فيه عن مفهوم العلة وتطوره والثاني عن الإدماج الصوري للعلة والقياس؛ أما الفصل الأخير فموسوم بالتمثيل للبنى النحوية بالمخططات الحديثة.

وجعل الخاتمة لأهم ما أثبتته العرب من مفاهيم علمية سيما الحديث عن مستويات اللغة، وطرق التحليل، والمفاهيم النحوية الأصيلة الأساسية.

ب/ النظرية الخليلية الحديثة:

تقوم النظرية الخليلية الحديثة للعلامة عبد الرحمن الحاج صالح على تعريف الدارسين بخصائص علوم اللسان العربي، ومضامينه النوعية انطلاقاً من مقولات اللسانيات الحديثة، وقد أثبتت هذه النظرية أهمية قراءة التراث العربي الذي يمثل مستخلصات ثمانية قرون أو تزيد من مخاض التفكير اللغوي عند العرب في ضوء النظريات اللسانية الحديثة، وهذا يعني أن المفاهيم النظرية الأساسية للنظرية الخليلية الحديثة اتجهت إلى إعادة قراءة التراث اللغوي العربي الأصيل، والبحث في خفاياه، ليس انتصاراً للقديم، ولا هدماً للحديث في ذاته، ولكن بغية التنبيه إلى الطفرة التلقائية المفاجئة التي أحدثها سيبويه وشيوخه وتلاميذه في تاريخ علوم اللسان البشري.

لقد سعت النظرية الخليلية منذ ظهورها إلى بعث الجديد عبر إحياء المكتسب، فتجاوزت بذلك مرحلة الاقتباس السلبي عند نقلها عن الغرب، أو عند نشرها عن العرب، وبنيت قراءتها للتراث وتأسيس أفكاره علمياً، بعيداً عن العاطفة على أساسيين، أولهما: أن التراث العربي لا يفسره إلا التراث العربي، فكتاب سيبويه على سبيل المثال لا يفسره إلا كتاب سيبويه؛ لأنه من المحال أن نُسقط على التراث مفاهيم، وتصورات لا تأخذ في الحسبان خصوصياته. وثانيهما: أن التراث العربي في العلوم الإنسانية عامة، واللغوية خاصة ليس طبقة واحدة من حيث الأصالة والإبداع.

كما تعلقت النظرية الخليلية الحديثة للعلامة "عبد الرحمن الحاج صالح" بالتراث العلمي اللغوي الأصيل الذي خلفه أولئك العلماء العرب المبدعون الذين عايشوا الفصاحة اللغوية الأولى، وشافهوا فصحاء العرب، وجمعوا اللغة، ودونوها خدمة للنص القرآني المقدس الذي كان يحتاج إلى الفهم، والتفسير، والتعليل في ضوء اللغة العربية النقية. (22) هذا الكتاب مقسم إلى ثلاثة أبواب كبيرة نوردتها على النحو الآتي:

الباب الأول تحدث فيه عن المدرسة الخليلية الحديثة، والدراسات اللسانية الحالية في الوطن العربي، وبشكل عام تحدث فيه عن أصالة النحو العربي، وعن النظرية الخليلية ومفاهيمها الأساسية وكيفية استغلالها، وعن اللسانيات الحديثة في العالم العربي؛ أما الباب الثاني فموسوم بالمدرسة الخليلية الحديثة ومشاكل علاج العربية بالحاسوب، وكان أبرز المواد التي تحدث عنها هي اللسانيات الحاسوبية وأسسها النظرية اللغوية، وعن النحو العربي الخليلي كمصدر لبناء نمط لغوي جديد، والنظرية اللغوية العربية والنظريات الحديثة مقارنة نقدية، ثم الحديث عن علم المعاني عند الغربيين وعند العرب؛ أما الباب الأخير فجعله للحديث عن الجملة في كتاب سيبويه.

ج/ السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة:

يؤكد هذا الكتاب على قضية مهمة ولا بد من التشهير والتعريف بها وهي لزوماً العودة إلى كلام العرب كافة والتعرف على الكيفية التي تم بها السماع المباشر من أفواههم والأخذ منهم، وهذا هو الذي كان يقصده الدكتور الحاج صالح وأشار إليه في كل أطوار كتابه، يقول: "فالذي نقصده من هذه الدراسة الأولى هو التثبت من ذلك بالنظر المتأن في ما قاموا به من سماع وتسجيل وتدوين وكيف تم كل ذلك" (23)

هذا الكتاب مقسم إلى أربعة أبواب تقدمها مقدمة تحدث فيها عن أصول البحث العلمي في التراث اللغوي، ومذيلة بخاتمة انبجست منها نتائج البحث؛ جعل الباب الأول من الكتاب للحديث عن العربية ومعيارها اللغوي، وقد نهض هذا الباب على ثلاثة فصول الأول منها مخصص للحديث عن الفصاحة ومفهومها وتطورها، وجعل الفصل الثاني للحديث عن المقاييس المكانية الزمانية للفصاحة السليقية، أما الفصل الثالث فجعله للمقاييس الصورية اللسانية للفصاحة؛ أما الباب

الثاني فموسوم ب اللغة العربية واسطورة اللغة المشتركة الأدبية بإزاء اللهجات العربية، واستنطق هذا الباب من خلال فصلين هما، الفصل الأول للأدلة على أنّ لهجات العرب كلها سواء وجواز الاحتجاج بها من خلال الأشعار والقراءات القرآنية، والفصل الثاني للحديث عن الأدلة الإحصائية الخاصة بلغات القبائل وكلها حجة؛ أما الباب الثالث فخصصه للسمع اللغوي، وجعل كل ذلك في ثلاثة فصول، الأول منه لمحتوى المسموع وخصائصه، والفصل الثاني لمقاييس الصحة لمحتوى المسموع، والفصل الأخير منه للمسموع والشواهد، أما الباب الرابع فخصصه للحديث عن التحريات اللغوية الميدانية ومناهجها (المشاهدة المباشرة: كيف تم السماع من أفواه العرب)، وهو يقوم على أربعة فصول جاءت تفاصيلها على النحو الآتي: الفصل الأول تحدث فيه عن أصحاب التحريات والسمع من اللغويين من البداية إلى القرن الرابع، والفصل الثاني تحدث فيه عن البيئة الطبيعية للتحريات وواصف المساهمين فيها، أما الفصل الثالث فجعله للحديث عن العنصر البشري في التحريات الميدانية، والفصل الرابع والأخير تحدث عن منهجية التحري اللغوي الميداني وتقنياته.

د/ منطلق العرب في علوم اللسان:

الفكرة الرئيسية التي ينهض عليها هذا الكتاب هو اعتماد النحاة الأوائل في بحوثهم الخاصة باللغة العربية على وسائل تحليلية تعتمد أساساً على العقل والمنطق، "فقد توصل الكثير منهم إلى إثبات مجموعة من الأصول استخرجوها بالنظر في كلام العرب وحاولوا أن يفسروا ما خرج عنها كما صرحوا عن ذلك هم بأنفسهم" (24) ينهض هذا الكتاب على أربعة أبواب مبتدأ بمقدمة تدور فكرتها المحورية على نشأة النحو العربي، ومذيلة بخاتمة، انبرى الباب الأول للحديث عن النحو العربي ومنطق أرسطو، وجُعل كل ذلك في ثلاثة فصول، الفصل الأول خُصص للحديث عن افتراض تأثير منطق أرسطو في النحو من أول نشأته وقيمه العلمية، وخصص الفصل الثاني للحديث عن أرسطو واقسام الكلام ومسألة عددها، أما الفصل الثالث فكان الحديث فيه عن النحو بعد سيبويه وهل حقيقة أثر المنطق الأرسطي في النحو؟؛ أما الباب الثاني فكان التطرق فيه إلى المفاهيم الأساسية للتحليل اللغوي العلمي، وبني هو أيضاً على ثلاثة فصول، الفصل الأول كان الحديث فيه عن الحس والنظر في النحو العربي، والفصل الثاني جاء للتعريف والتصنيف ومراتب اللغة عند سيبويه وأتباعه، أما الفصل الثالث فكان للحديث عن القياس في النحو العربي (حقيقته وأهميته)؛ أما الباب الثالث فموسوم باستنباط أصول العربية (منهجه ووسائله التقنية ومقتضياته)، الذي نهض على أربعة فصول، نورد تفاصيله على النحو الآتي: الفصل الأول خصص للحديث عن مفهوم اللزوم والاستمرار (علاقة أخرى غير القياس كتوافق المجرى)، والفصل الثاني للحديث عن الاطراد في مقابل الشذوذ ومشكلة القياس على الأكثر، أما الفصل الثالث فخصصه للحديث عن كيفية استنباط الأصول، أما الفصل الأخير فتحدث فيه عن الخلاف النحوي بين نحاة البصرة ونحاة الكوفة؛ والباب الأخير من هذا الكتاب كان الحديث فيه عن التمثيل العلمي لمثل العربية وخصائص الاستدلال في علوم العربية، وهو ينهض على ثلاثة فصول وردت متتابعة على الشكل التالي: الفصل الأول منها للحديث عن التجريد التمثيلي عند النحاة، والفصل الثاني للحديث عن القياس كاستدلال (القياس النحوي والاستدلال العربي وغير العربي)، والفصل الثالث والأخير للحديث عن القياس العربي عند النحاة الأولين وعند الأصوليين والمتكلمين.

هـ/ الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية:

يشير عبد الرحمن الحاج صالح عن ماهية عنوان هذا الكتاب وما هي الفكرة المحورية التي انبنى عليها، نجده في مقدمة هذا الكتاب يصرح قائلاً: "موضوع كتابنا هذا هو هذا الخطاب وهذا التخاطب أي هذا الجانب من الكلام الجاري بالفعل على الألسنة الذي تعرض له العوارض لا على الإطلاق بل في إطار النظرية اللغوية العربية التي اختص بها علماء اللغة

العرب النحويون منهم والبلاغيون وأهم ما تتصف به هذه النظرية هو التمييز بين اللغة وبين كيفية استعماله في التخاطب" (25)

يقوم بناء هذا الكتاب على ستة أبواب، تبتدئ بمقدمة الحديث فيها عن الكلام والخطاب، ومذيلة بخاتمة احتوت نتائج البحث، أما الباب الأول فكان يدور حول مفهوم الوضع اللغوي عند النحاة وعلماء الأصول، وهو يقوم على فصلين، الأول منه خصصه لمفهوم الوضع (نشأته وتطوره)، والفصل الثاني للمواضعة والاصطلاح عند المتكلمين والفلاسفة؛ والباب الثاني جعله لقضية الاستعمال في مقابل الوضع (الكلام ومكوناته الخطابية)، وهو يقوم على ثلاثة فصول، الأول منها جعله كمدخل عام لدراسة ظواهر التخاطب واعتداد النحاة بمكوناتها وبدورها، والفصل الثاني للتخاطب وأوصافه وشروط حصوله، أما الفصل الثالث فكان الحديث فيه عن قوام التخاطب وظواهر تشويشه؛ أما الباب الثالث فخصص للحديث عن الإبهام كصفة لازمة للأوضاع خاصة تنفرد بها اللغة عند النحاة، وقد انبج منه هو أيضا أربعة فصول هي: الفصل الأول للإبهام أو عدم الاختصاص، والفصل الثاني للاسم وإبهامه، والفصل الثالث للحديث عن إبهام الفعل وإبهام حرف المعنى، والفصل الرابع للحديث عن البنية وظاهرة الاشتراك؛ وإذا ما انتقلنا إلى الباب الرابع وجدناه يتحدث عن اللفظ والمعنى في كل من الوضع والاستعمال، وهو ينهض على ثلاثة فصول وردت متتابعة على النحو الآتي: الفصل الأول جاء كمدخل لدراسة أوصاف اللفظ والمعنى وضعا واستعمالا، والفصل الثاني للحديث عن التقابل المطلق بين الدلالة اللفظية (الوضعية) والدلالة العقلية وسائر الدلالات غير الوضعية، والفصل الثالث منه للحديث عن تطور مفاهيم الخطاب والانحرافات الكبرى بالتخليط بينها.

أما الباب الخامس فوسمه الحاج صالح بالخبر والإنشاء كمعان للكلام وكأفعال للمتكلم في كلامه أو بكلامه، وهو ينقسم إلى ثلاثة فصول وردت على النحو الآتي: الفصل الأول للحديث عن أقسام معاني الكلام (الخبر وأنواع الإنشاء)، والفصل الثاني للحديث عن أفعال الكلام والفصل الثالث للحديث عن استيلاء مفاهيم المنطق اليوناني وما أضافه الفلاسفة العرب على دراسة الخطاب؛ أما الباب الأخير فموسوم بنظرية الخطاب العربية والنظريات الغربية الحديثة في الخطاب (محاولة لمقارنة موضوعية توضيحية)، وهو يبني على خمسة فصول، الأول منها جاء حديثا عن الوضع والاستعمال عند العرب (اللغة والكلام عند سوسور وغيره)، والثاني منه للحديث عن البراكمتيك الغربية ونظرية الخطاب العربية، والثالث منه للحديث عن دور الدلالات غير الوضعية والعناصر المهمة في الخطاب في البراكمتيك وعند العرب، والفصل الرابع منه خصص لأنواع الاتساع ومشكل تحديدها، والفصل الخامس والأخير للحديث عن أفعال الكلام في البراكمتيك وافعال المتكلم في الإيقاع أو الإنشاء العربي.

و/ بحوث ودراسات في اللسانيات العربية:

يكفي الحاج صالح فخرا ما قاله فيه شيخ اللغويين العرب الدكتور شوقي ضيف" وقد أتى بمباحث جديدة لم يسبق إليها وهو مشكور لهذا الجهد العلمي الرائع (26)

ومن المباحث الجليلة التي تطرق إليها في هذا السفر، أنّ النحو العربي لم يتأثر بالمنطق الأرسطي بل هو نحو صاف صفاء ألسنة العرب الخالص، وإشارته إلى النظرية الخليلية التي لا تقل أهمية من جاراتها النظريات الحديثة الكبرى، وإشارته إلى مصطلح الجملة الذي لم يكن البتة من عناوين كتاب سيبويه بل حتى لم يشر إليه، وتثويره لقضية الترجمة والمصطلح العربي ومشاكلهما، وكذا اقتراحه لمشروع الذخيرة اللغوية؛ هذه هي أهم النقاط التي تناولها بالدراسة والتحليل. (27)

وعليه فإنّ الكتاب ينهض على أربعة قضايا محورية، تقدمها مقدمة من طرف شيخ اللغويين الدكتور شوقي ضيف، حيث تمحورت القضية الأولى من هذا الكتاب على أبرز الدراسات والبحوث الخاصة بعلم العربية وعلاقتها باللسانيات الحديثة

وتكنولوجية اللغة، أما القضية الثانية فكانت للحديث عن قضايا اللغة العربية ووسائل ترقيتها، وثالث ثلاثة من هذه القضايا هو الحديث عن النظرية الخليلية، وآخر قضية هي قضايا الترجمة والمصطلح.

الخاتمة:

- الجزائر لم تكن يوما عقيما، بل إن من يصنع أمجاد الأمم ويبنى حضاراتها أفلام وأفكار جزائرية، فيها يصدق قول الشاعر: لنا في كل مكرومة مجال ومن فوق السمك لنا رجال
- عبد الرحمن الحاج صالح من خيرة ما أنجبت الجزائر المتخصص في العلوم الطبية واللسانية، بل في كثير من النوادي كان ينادي بالجمع بين تخصصات على غرار اللسانيات الحاسوبية والعربية.
- لهذا العالم اللغوي منهجية فريدة في تعامله مع التراث اللغوي العربي القديم، أبدع فيها أيما إبداع، شهد له بذلك القاضي قبل الداني.
- محاولة الدكتور إقامة توأمة بين البحث اللغوي القديم والبحث اللساني الحديث، نتج عن ذلك مجموعة من البحوث والنظريات أبرزها مشروع الذخيرة الذي بقي حبيس الأدراج منذ أن غادر صاحبه الحياة.
- ترك لنا الدكتور جملة من الآثار والمؤلفات لا بد من تثويرها وقراءتها، وسبر أغوارها وكنهها، بل وتوجيه طلبة الدراسات العليا نحوها والتعرف عليها.
- أخيرا، على الدارسين والباحثين الاهتمام بعلماء الجزائر، كلُّ في ميدانه، حتى يتعرف الآخر على أن هذه الأمة لها قدم صدق.

هوامش البحث:

- 1/ ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح رئيس مجمع اللغة العربية الجزائري، كتب بواسطة موقع منتدى مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، تاريخ 2017/5/3، الموقع الإلكتروني: <http://www.m-a-arabia.com/vb/showthread.php?t=20667>
- 2/ الاتجاه التوافقي بين التراث واللسانيات المعاصرة، بان صالح مهدي الخفاجي، جامعة بغداد، قسم اللغة العربية، أطروحة دكتوراه، 2014، ص 167.
- 3/ ينظر: النقد العربي ومناهجه، جميل حمداوي، موقع دنيا وطن، كتب بتاريخ، 2007/01/04.
- 4/ المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، مكتبة الشروق الدولية، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط 4، 2004، مادة نهج.
- 5/ لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط 3، (د.ت)، 1994م، مادة نهج.
- 6/ الفائق في غريب الحديث: جار الله محمود الزمخشري، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1982، 3/339.
- 7/ مناهج النقد الأدبي الحديث، عبد الله خضر حمد، دار الفجر، بيروت، ط 1، 2017، ص 11.
- 8/ البحث عن المنهج في الأدب العربي الحديث، سيد البحراوي، دار شرقيات، القاهرة، ط 1، 1993، ص 111.
- 9/ إشكالية المنهج والمصطلح في تجربة عبد المالك مرتاض النقدية. يوسف وغيلسي، أطروحة ماجستير مرقونة بمكتبة جامعة قسنطينة. سنة 1996. ص: 10.
- 10/ مقدمة في علوم اللغة، زهران البدرابي، دار المعارف، مصر، ط 2، 1968، ص 175.
- 11/ الروضات الحسان في حقلي اللغة واللسان، ص 7.
- 12/ إحصاء العلوم، أبو نصر الفارابي، تحقيق عثمان أمين، ط 2، دار الإنماء القومي، القاهرة، ص 57-59.
- 13/ كتاب الحروف، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2006، ص 78-79.
- 14/ ينظر المقدمة، ابن خلدون، دار الفكر، بيروت، ط 1، 2004، ص 620.
- 15/ لسان العرب، ابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، ط 2، 1992، (مادة ورت).
- 16/ ينظر التراث والحداثة، محمد عابد الجابري، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 1، 1991، ص 22.
- 17/ أثر التراث في المسرح المعاصر، سيد علي إسماعيل، دار قباء، القاهرة، ط 1، 2007، ص 40.
- 18/ التراث والحداثة، محمد عابد الجابري، دار المركز الثقافي، الدار البيضاء، ط 1، 1992، ص 14.
- 19/ السماع اللغوي عند العرب ومفهوم الفصاحة، عبد الرحمن الحاج صالح، ص 7.
- 20/ إسهامات عبد الرحمن الحاج صالح في ترقية اللغة العربية، خيرة بلجيلالي، مجلة حوليات التراث، العدد 17، 2017، ص 64.
- 21/ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 22/ ينظر: النظرية الخليلية الحديثة عند عبد الرحمن الحاج صالح، عادل بوديار، موقع شبكة ضياء، شوهديوم : 2019/04/20 الموقع الإلكتروني: <https://diae.net/45160/>
- 23/ السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، عبد الرحمن الحاج صالح، دار موفم، الجزائر، ط 1، 2012، ص 7.
- 24/ منطلق العرب في علوم اللسان، عبد الرحمن الحاج صالح، دار موفم، الجزائر، ط 1، 2012، ص 8.
- 25/ الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، دار موفم، الجزائر، ط 1، 2012، ص 8.

26/ بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، دار موفم، الجزائر، ط1، 2012، ص8.

27/ ينظر: المرجع نفسه، ص7-8.